حديث النفس

صفحات ونفحات

بقلم
الدكتور محمد مصطفى حلمى
استاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب
جامعة القاهرة

هذه صفحة رائعة من صفحات رائعة كثيرة خلفها الزهاد والعباد الأولون من المسلمين ، وخلفوا معها تراثا نفسيا وخلقيا قيما كان له خطره العظيم وأثره البعيد فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية : فالنفس الانسانية هى المحور الذى يدور عليه الحديث فى هذه الصفحة ، وفى غيرها من الصفحات التى أرجو ان أقف عندها فى مقالات مقبلة . وحديث النفس الانسانية ها هنا ليس حديثا عنها فحسب ، وانما هو حديث عنها وحديث اليها معا ، فيه يتحدث الزاهد العابد المسلم عن نفسه فيتصفحها ويتأملها ، ويحللها ويعللها ، ويبين نزواتها وشهواتها ، ويصف أمراضها وآفاتها ، وفيه يتحدث الى نفسه فيلومها ويزجرها ، ويخوفها وينذرها ، ويدعوها الى التخلى عن عيوبها والتوبة عن ذنوبها ، والى مفارقة بدنها والعودة الى ربها ، ويصور لها ما هى واجدة فى حياتها الأخرى من عقاب على ما اجترحت من سيئات ، ومن ثواب على ما قدمت من حسنات . والزاهد العابد فيما يتحدث به عن نفسه أو الى نفسه من هذا كله ، ومن ألوان الرياضة والمجاهدة ، وما اليها من وسائل التصفية والتنقية ، انما يقدم لنا صورة اخلاقية لما ينبغى أن تكون عليه حياة المسلم المتحقق بالاسلام ، المحقق لمبادىء الاسلام ، سواء فى صلته بربه ، أوصلته بأشباهه ، أوصلته بنفسه .

ولعل أظهر ما يظهر من سمات اتسمت بها هذه الصفحات التى خلفها الزهاد والعباد الأولون فى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية ، هو أن أصحابها الذين جرت ألفاظها وعباراتها على ألسنتهم ، انما كانوا يصدرون عن خوف ورجاء من ناحية ، وعن حزن وبكاء من ناحية أخرى ، خوف من

عذاب النار ، ورجاء فى نعيم الجنة ، وحزن مما ولدته الخطيئة والمعصية فى نفوسهم من ألم وحسرة ، وبكاء مما فات من الأجل فى الامعان فى لهو الحياة الدنيا ، وعلى ما قد ينقطع من الأمل فى حسن العقبى . ومن هنا كانت حياة أولئك الزهاد والعباد ، سواء من كان منهم من الصحابة أو التابعين ، ومن كان من الطبقات الأخرى التى جاءت فى أعقاب التابعين ، هى الصورة الأولى للحياة الروحية الاسلامية التى أخذت تتطور بعد ذلك مع الزمن ، وتتطور بحكم هذا التطور بصور عدة ، ولكنها على تعددها تستمد مقوماتها من تلك الحياة الأولى التى كان يحياها المتقدمون من الزهاد والعباد والنساك والفقراء والبكائين الذين ليسوا فى الحقيقة الا بمثابة الأغصان المذهرة اليانعة من شجرة النبوة النضرة المباركة .

وحديث النفس عن النفس والى النفس ، الذى أحب ان أقف عنده اليوم ، هو لزاهد من زهاد الأولين المسلمين ، تحدث فيه عن نفسه تارة ، وتحدث فيه الى نفسه تارة أخرى ، وهو فيما بين الحديثين يظهرنا على ذات نفسه ، ويكشف لنا عما انطوت عليه هذه النفس من نوازع الهوى ، ودوافع الشر ، وما أغرقت فيه من خطيئة ومعصية ، وما عرض لها من ندم وزجر وانزجار ، وما أخذها به من توبة وانابة واستغفار ، وهذا الزاهد هو عون بن عبد الله بن عتبة .

كان عون بن عبد الله بن عتبة من التابعين ، أدرك جماعة من الصحابة ، وسمع عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وأبا هريرة ، وروى عن أبيه عن عبد الله بن مسعود ، وصحب الشعبى ، والأسود بن يزيد ، وطائفة صالحة من التابعين من أهل الكوفة وغير الكوفة من الأمصار ، وعنه روى جماعة من أئمة التابعين وأعلامهم . وكما كان عون معدودا فى التابعين ، فقد كان أبوه معدودا فى الصحابة ، اذ أدرك النبى صلى الله عليه وسلم : فمنزلة عون من الصدر الأول للاسلام منزلة لها خطرها وأثرها فى تقويم الحياة الروحية الاسلامية فى أول عهدها ، ذلك بأنه كان من الأقبال على الله ، والدأب على ذكر الله ، والزهد فى الدنيا والاعراض عنها ، والخوف من نفسه والتخويف لها والبكاء عليها ، والترديد الذى لا يكاد ينقطع لذكر

خطيئته والإشفاق منها ، كان من هذا كله ومن غيره من رياضة نفسه ومجاهدتها ، وكبح جماح حواسه ومعاندتها ، بحيث صورة أبو نعيم الاصفهانى فى هذه الصورة التى عبر عنها بقوله : « كان لمسير الأجل مبصرا ، ولغرور الأمل محذرا ، وكان على نفسه نائحا ، والى الحق رائحا » . وليس من شك فى ان أصدق مرآة تتجلى على صفحتها حياة عون الروحية ، هو حديثه عن نفسه والى نفسه ، هذا الحديث الذى تستمد عناصره من مواعظه ووصاياه بصفة عامة ، ومن وعظه لنفسه وبكائه من خطيئته بصفة خاصة .

وها نحن أولاء نقرأ حديث عون عن نفسه أو حديثه الى نفسه ، فاذا بهذا الحديث أو ذاك أمعن ما يكون فى الخوف والتخويف ، وأوغل ما يكون فى التهديد والوعيد ، وأفعل ما يكون فى النفوس والقلوب والعقول جميعا ، وذلك لما يتردد ويشيع فى كل من الحديثين من كلمات الرحمة مثل « ويح » و « ويح نفسى » و « ويحها » و « ويحى » ، ومن كلمات العذاب مثل « ويل » و « ويل نفسى » و « ويلها » و « ويلى » ، وما الى ذلك من الألفاظ والعبارات والفقرات التى يرتبط بعضها ببعض ، ويعبر كلها عن أقوى المعانى النفسية والأخلاقية التى تتصل بالنفس الانسانية ، وبما تغرق فيه هذه النفس من معصية ، وما تطمح اليه من رحمة ومغفرة . وليس أدل على هذا كله من قول عون وهذا نصه :

« ويحى ! بأى شىء لم أعص ربى ، ويحى ! من خطيئة ذهبت شهوتها ، وبقيت تبعتها ، عندى فى كتاب كتبه كتاب لم يغيبوا عنى ، وأسوأتاه ! لم استحيهم ، ولم أراقب ربى ، ويحى ! نسيت مالم ينسوا منى ، ويحى ! غفلت ولم يغفلوا عنى ، لم أستحيهم ولم أراقب ، وأسوأتاه ! ويحى ! حفظوا بما ضيعت منى ، ويحى ! طاوعت نفسى وهى لا تطاوعنى ، ويحى ! طاوعتها فيما يضرها ويضرنى ، ويحها ! ألا تطاوعنى فيما ينفعها وينفعنى ، أريد اصلاحها وتريد ان تفسدنى ، ويحها ! انى لأنصفها وما تنصفنى ، أدعوها لأرشدها ، وتدعونى لتغوينى ، ويحها ! انها لعدو لو أنزلتها تلك المنزلة منى ، ويحها ! تريد اليوم ان تردينى وغدا تخاصمنى ... »

وان عونا ليذكر خطيئتـه ، وما لها من أثر فى نفسه ، ويتسـاءل كيف لا تقض الخطيئة مضجعه ، ولا تسيل مدمعه ، كل ذلك فى دهش وتعجب واسترحام على الوحه الذى يدل عليه قوله :

« ويحى ! أزعم ان خطيئتى قد اقرحت قلبى ، ولا يتجافى جنبى ، ولا تدمع عينى ولا تسهر ليلى ، ويحى ! كيف أنام على مثلها ليلى ، ويحى ! هل ينام على مثلها مثلى ، ويحى ! خشيت ان لا يكون هذا الصدق منى ، بل ويلى ! ان لم يرحمنى ربى ، ويحى ! كيف لا توهن قوتى ، ولا تعطش هامتى ، بل ويلى ! ان لم يرحمنى ربى ، ويحى ! كيف لا أنشط فيمـــا يطفئها عنى ، بل ويلى ! ان لم يرحمنى ربى ... »

وهو يذكر نفسه بما تأتى ، وبما ينبغى ان تدع ، كما يذكرها بالمسئولية والجزاء ، وبما هى ملاقية عند ربها من ثواب أو عقاب ، وذلك على الوجه الذى نتبينه معه من قوله :

« ويحك يا نفسى ! مالك لا تنسين ما لا ينسى ، وقد أتيت ما لا يؤتى ، وكل ذلك عنـد ربك يحصى ، فى كتـــاب لا يبيد ولا يبلى . ويحك ! ألا تخافين أن تجـزى فيمن يجزى ، يوم تجزى كل نفس بما تسعى ، وقد آثرت ما يفنى على ما يبقى ... »

ويتجاوز عون حـديثه عن نفسه والى نفســه ، الى حديثـه عن أنفس غيره ، وعما تنطوى عليه هـذه الأنفس من غرور وغفلة وجهـالة ، كما يذكرنا بما يجرى على أفواهنا من أقوال ، وعلى أيدينا وأرجلنا من أفعال ، وذلك اذ يقول :

« ويح لنا ما أغرنا ! ويح لنا ما أغفلنا ! ويح لنا ما أجهلنا ! ويح لنا لأى شىء خلقنا ؟ للجنة أم للنار ؟ ويح لنا أى خطر خطرنا ! ويح لنا من أعمال قد أخطرتنا ! ويح لنا مما يراد بنا ! ويح لنا كأنما يعنى غيرنا ! ويح لنا ان ختم على أفواهنا ، وتكلمت أيدينا ، وشـهدت أرجلنا ! ويح لنا حين تفتش سرائرنا ... »

على ان حديث النفس عند عون قد يتجاوز هذا كله ، الى حديث آخر

عليه أروع وأمتع ، لأن المخاطب فيه والمتحدث عنه أعز وأمنع ، وأعنى بهذا الحديث الآخر مناجاته لربه ، ولكنها مناجاة لا تكاد تخلص من حديث النفس ، وانما هى مناجاة يمتزج فيها حديثه الى ربه بحديثه عن نفسه ، فيخرج لنا من هذا المزاج دعاء يهز النفوس ، ورجاء يملأ القلوب ، فاذا هى ترجو الخلاص من الشر ، والتحقق بالخير ، على الوجه الذى تجنب فيه الهلاك ، وتكتب لها معه النجاة ، وذلك على نحو ما يظهرنا عليه عون فى قوله :

« رب ، لا تسلطها على ذلك منى ، رب ، ان نفسى لم ترحمنى فارحمنى ، رب ، انى أعذرها ولا عذرتنى ، انه ان يك خيرا أخذلها وتخذلنى ، وان يك شرا أحبها وتجبنى ، رب ، فعافنى منها وعافها منى ، حتى لا أظلمها ولا تظلمنى ، واصلحنى لها وأصلحها لى ، فلا أهلكها ولا تهلكنى ، ولا تكلنى اليها ولا تكلها الى ... » .

وكما كان الثواب والعقاب ، وابتغاء أولهما ، واتقاء ثانيهما ، هى العوامل التى عملت عملها فى زهد عون بن عبد الله بن عتبة وآتت أكلها فى حياته الروحية ، وظهرت دلائلها فيما ضربنا به الأمثال من مواعظه ، فكذلك كان شأن هذه العوامل فيما اثر عنه من مناجيات . ولعلنا اذا أردنا ان نخلص من كل ما تقدم الى فكرة تجمل مذهب هذا الزاهد المسلم ، وتصور دوافعه النفسية ونوازعه الروحية ، لم نجد مختتما نختتم به هذا الحديث خيرا من مناجاة عون الله ، وذلك حيث يقول :

« رب ما أرفع حجتك ، وأكثر مدحتك ، رب ، ما أبين كتابك ، وأشد عقابك ، رب ما أكرم مآبك ، وأحسن ثوابك ، رب ، ما أجزل عطاءك وأجمل ثناءك ، رب ، ما أحسن بلاءك ، وأسبغ نعماءك ، رب ، ما أعلى مكانك ، وأعظم سلطانك ... » .

محمد مصطفى حلمى